

تفسير أبي السعود

القصوى من الخلق على ما نطق به D وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون أي ليعرفون كما أعرب عنه قوله E يقول ا[] تعالى كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف وإنما طريقها النظر والتفكر فيما ذكر من شئونه تعالى وقد روى عنه عليه السلام انه قال لا تفضلوني على يونس بن متى فإنه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض قالوا وإنما كان ذلك التفكر في أمر ا[] تعالى ولذلك قال عليه السلام لاعبادة مثل التفكر وقد عرفت أنه مستتبع لتحقيق ما جاءت به الشريعة الحقة وإلا لما فسر النبي قوله تعالى وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا بقوله E أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم ا[] تعالى فإن التورع عن محارمه سبحانه موقوف على معرفة الحلال والحرام المنوط بالكتاب والسنة فحينئذ تتصادق الآيات التكوينية وتتوافق الأدلة السمعية والعقلية وهو السر في نظم ما حكى عن المتفكرين من الأمور المستدعية للإيمان بالشريعة في سلك نتيجة تفكرهم كما ستقف عليه وإظهار خلق السموات والأرض مع كفاية الإضمار لإبراز كمال العناية ببيان حالهم والإيذان بكون تفكرهم على وجه التحقيق والتفصيل وعدم التعرض لإدراج اختلاف الملوك في سلك التفكر مع ذكره فيما سلف إما للإيذان بظهور اندراجهم فيه لما أن ذلك من الأحوال التابعة لأحوال السموات والأرض كما أشير إليه وإما للإشعار بمسارعتهم إلى الحكم بالنتيجة بمجرد تفكرهم في بعض الآيات من غير حاجة إلى بعض آخر منها في إثبات المطلوب والخلق مصدر على حاله أي يتفكرون في إنشائهما وإبداعهما بما فيهما من عجائب المصنوعات وقيل بمعنى المخلوق على أن الإضافة بمعنى في أي يتفكرون فيما خلق فيهما أعم من أن يكون بطريق الجزئية منهما أو بطريق الحلول فيهما أو على أنها بيانية .

ربنا ما خلقت هذا باطلا كلمة هذا إشارة إلى السموات والأرض متضمنة لضرب من التعظيم كما في قوله تعالى إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم والتذكير لما أنهما باعتبار تعلق الخلق بهما في معنى المخلوق وباطلا إما صفة لمصدر مؤكد محذوف أو حال من المفعول به أي ما خلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثا عاريا عن الحكمة خاليا عن المصلحة كما ينبئ عنه أوضاع الغافلين عن ذلك المعرضين عن التفكر فيه بل منتظما لحكم جليية ومصالح عظيمة من جملتها أن يكون مدارا لمعاش العباد ومنارا يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد حسبا افصحت عنه الرسل والكتب الإلهية كما تحققتة مفصلا والجملة بتمامها في حيز النصب بقول مقدر هو على تقدير كون الموصول نعتا لأولى الأبواب استئناف مبين لنتيجة التفكر ومدلول الآيات ناشئ مما سبق فإن النفس عند سماع تخصيص الآيات المنصوبة في خلق

العالم بأولى الأبواب ثم وصفهم بذكر الله تعالى والتفكر في محال الآيات تبقى مترقية لما يظهر منهم من آثارها وأحكامها كأنه قيل فماذا يكون عند تفكرهم في ذلك وماذا يترتب عليه من النتيجة فقل يقولون كيت وكيت مما ينبئ عن وقوفهم على سر الخلق المؤدى إلى معرفة صدق الرسل وحقية الكتب الناطقة بتفاصيل الأحكام الشرعية على التفصيل الذي وقفت عليه هذا وأما جعله حالا من المستكن في الفعل كما أطبق عليه الجمهور فمما لا يساعده النظم الكريم لما أن ما في حيز الصلة وما هو قيد له حقه أن يكون من مبادئ